

الصراع مع الأسدين: مذكرات الدكتور كمال اللبواني السياسية

الصراع مع الأسدين

الجزء الأول

الجزء الأول

Matia Press

عندما يتقدّم بك العمر، يصبح الماضي كل ما لديك، ويتقلّص المستقبل إلى حاضر لا يطيق الانتظار. في كلّ حياةٍ ما يستحقّ الكتابة. إنّ الكتابة هي التي جعلت الخبرات والثقافة تتراكم وتتطوّر وتنتقل عبر الأجيال. ولكوني عشتُ مرحلةً شهدت تحولات كبرى على الصعيد الجيوسياسي والاجتماعي والتكنولوجي، أشعر بأنّ في تجربتي ما يستحقّ التوقّف عنده. بدأت حياتي عندما لم يكن هناك سوى الراديو، وكانت الكهرباء بالكاد متاحة. أمّا اليوم، فنعيش عصراً لم يكن حتى الخيال العلمي قادراً على تصوّره قبل عقود. في طفولتي، كانت المرجعية هي الأعراف والعادات والتديّن الفطري، في حين أنّ الدولة لم تتدخّل إلا من بعيد. أمّا اليوم، فقد أصبح التحكم بالمواطن واستعباده هدفاً لكلّ سلطة ومؤسسة، ولا سيما رجال الدين الذين أدركوا فعالية تقديس السلطة. قصتي هذه تلخّص نضالي من أجل الخير والحرية، ولا أستطيع أن أصفها إلا بأنّها مزيج من الجهد للضني والإحباط. عشتُ الثورة السورية بكلّ إرهاباتها وتقلباتها، وانتهت، للأسف، إلى نتيجة لم أتوقّعها. فأنا حزين ومحبط رغم انتصار ثورتِي. لكن في نهاية الأمر، أترك لكم معاناتي، آملاً ألاّ تعانوا مثلها، وأحلامي، آملاً أن يحققها الجيل الجديد إن استطاع أن يحافظ على حريته.

الدكتور كمال اللبواني



الصراع مع الأسدین: مذكرات الدكتور کمال اللبواني السیاسیة

الجزء الأول



MATIA

ماتیا برس

کلوج نابوکا، رومانیا

أثینا، الیونان

matia-press.com

الصراع مع الأسدین: مذكرات الدكتور کمال اللبواني السياسية، الجزء الأول

المؤلف: الدكتور کمال اللبواني

الناشر: ماتيا برس

تاریخ النشر: 2026

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف محمد کمال اللبواني

يُمنع إعادة طباعة هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، ورقياً أو إلكترونياً. ويُمنع اقتباس أي جزء منه دون ذكر المصدر، واسم الكتاب، واسم المؤلف، واسم الناشر، وعام النشر. وأي محاولة لنسخ أي محتوى من هذا الكتاب تترتب عليها مسؤولية قانونية.

تعود أرباح هذا الكتاب إلى الكاتب، وعلى عاتقه تقع أي مسؤولية ضريبية.

تنشر ماتيا برس هذا الكتاب على أساس غير ربحي.

الفهرس

1	مقدمة
13	الفصل الأول: الحرب الأهلية
21	الفصل الثاني: نكسة حزيران
29	الفصل الثالث: الاستبداد
39	الفصل الرابع: القمع
61	الفصل الخامس: الخوف
101	الفصل السادس: التجمد
104	الفصل السابع: ربيع دمشق

مقدمة

هذا العام هو 2017، وعلى كرهى لهذا الرقم ورغبتي في عدم كتابته، أكون قد أتممت الستين من العمر. قبل خمس سنوات، هجرت سوريا وحصلت على اللجوء السياسي في السويد والجنسية مؤخراً. حالياً، أقيم في وسط السويد في منزل ريفي جميل مع عائلتي المكونة من زوجتي وأولادي الثلاثة هند وهيفاء وعمر الذين صاروا منتجين. هذه هي أسرتي التي حرمت منها عشر سنوات بسبب السجن في سجون آل الأسد، وأربع سنوات بسبب انشغالي الكلي في النشاط المعارض الذي كان بلا جدوى.

في المحصلة، فقدت معظم أصدقائي وكل ما جنيت وكل ما عملت من أجله، وصرت أنتظر فقط حسن الختام بهدوء صقيع هذه البلاد. لم يعد ألامي مستقبل أفكار فيه، لذلك صارت الذكريات تأخذني نحو الوراء لمراجعة تاريخ من العمل السياسي المعارض—أو "النضال" كما يسمونه—الذي امتد قرابة 50 عام أي تحديدا منذ هزيمة حزيران عام 1967. هذه النكسة حولتني لسياسي معارض رغم حداثة سني، وهذا التغير قُدِّر له أن يحكم حياتي كلها فيما بعد. وهكذا ناضلت ضدَّ نظام عسكري مهزوم مستبد حكم بشكل مطلق، حيث لم تنجح أعتى وأعنف الثورات بإسقاطه.¹ عادة يكتب المنتصرون سيرتهم ليرتبط اسمهم بسجل التاريخ الناصع، لكنني أفعل العكس كما كنت دوماً أفعل في معارضي ليس فقط للنظام السياسي بل الثقافي أيضاً الذي يقوم عليه.

الآن، أكتب سيرة هذه الهزيمة متسائلاً كيف انتهى بنا الحال لما يفوق بكثير الخسارة العسكرية المنكرة، ليشمل دمار الوطن وتقسيمه واحتلاله وتشرذم شعبه، ليس على يد العدو الصهيوني كما يسمونه عندنا، بل على يد الجيش العربي السوري والأمن

¹ كتب هذا الجزء من الكتاب عام 2017، أي قبل سبع سنوات من سقوط نظام الأسد. سوف أضيف ملحق يشمل عشر سنوات عشتها بعد كتابته في السويد حتى نهاية عام ٢٠٢٦ ويتضمن ما تابعتته عن بعد من تطورات قبل وبعد النصر المتأخر الذي حمل الكثير من معاني الهزيمة.

الوطني ذاته وحلفاءه فقط، بل أيضاً بيد المعارضين والمتطوعين والثوار وحلفائهم. صحيح أنه هناك تدخل أجنبي، لكن على الدوام كان هناك الكثيرون ممن يتعامل معه على حساب وطنهم. مع ذلك، لا يجوز تبرير ما حدث بمؤامرة خارجية تعفينا من مسؤولياتنا وتخفي أخطاءنا وتحولنا لضحايا. هذا الدمار الذي ألحقناه ببلدنا هو حصيلة الحياة السياسية التي عشتها، ولذلك فإن تدويني لها هو نوع من نقد الذات، وبمثابة تجربة لنصح من سيدخل المستقبل بعدنا. في هذا الكتاب، أقدم مجمل ما حفظته في الذاكرة كخبرة ذاتية رداً على مرارة التجربة و اليأس الذي تولده عملية تبليان مدى فساد وسوء النظام الوطني، والمعارضة، ومجمل المنظومة الثقافية السياسية للشعب.

لحسن الحظ، وجدت من شجعتني على كتابة رحلتي هذه من أجل الأجيال القادمة كما قال—تلك الأجيال التي ستسأل عن هذه المأساة التي تعرض لها الشعب السوري بيده هو حتى لو ادعى أنه ضحية مؤامرة.

اعتذر سابقاً من كل من سيشعر بالإساءة لورود اسمه الصريح. بعيداً عن الشخصية، ما عايشته هو نموذج عن ظاهرة عامة تكررت بصور وأشكال وشخصيات مختلفة في كل مكان، أذكرها بدمها ولحمها واسمها الصريح لأنها حقائق وإن كان فيها الأصدقاء والرفاق والزملاء، إضافة لمواطنين عملوا يوماً في مؤسسات النظام. أتمنى ألا نتوقف عند الحساسيات الشخصية، وأن نقدم في هذه القصة الحقيقية ما يفيد من سيبقون ويعيدون بناء سوريا المدمرة بعدنا، التي أوّمن أنها ستعود للإزدهار مهما طال الزمن لإيماني بقدرة وعظمة شعبها الذي كان وسيبقى مهد الحضارات ومبدعاً لها. ولعلي أعتبر نكبته هذه كنوع من آلام الولادة الجديدة.

نكتب قصتنا هذه من مكان بعيد وعن زمن مضى، ووطن لم يتبق لنا في المدى المنظور سوى الرجاء أن ندفن فيه لو سنحت الظروف أو تباطأت الأمراض والمنية،

وبالضبط عند شجرة التين (التي قطعوها) في زاوية حديقة منزلي الذي بنيته بيدي على أرض ورثتها من أجدادي في الزبداني شارع السلطاني .



صورة لأنقاض منزلي في الزبداني



صورة لحديقة المنزل ذاته



صورة المنزل من الداخل

أستطيع أن أُلخص الحياة السياسية في سوريا منذ أواخر السبعينات وحتى الآن بعبارة واحدة: الصراع مع الخوف. إنَّه الخوف الذي عرف معناه بدقة ثلاثة أشخاص، هم حافظ الأسد وعبد الرزاق عيد وأبو بكر البغدادي. الأول اختبأ نتيجة خوفه في أعلى قمة السلطة التي حرص أن تمارس فعل التخويف والإرهاب على الشعب الذي يبادله الكراهية. الثاني فشل في التغلب على الخوف بطريقة عقلانية تتناسب مع دراسته للآداب والعلوم الإنسانية. الأخير أدرك قيمة هذا الخوف وجعله حافزاً لمقارعة شعوره بالضعف والمهانة.

الرعب الذي صنعه النظام الانقلابي العسكري البعثي لفرض الإذعان تفاقم بتأثير أحداث العنف الانتقامي التي قام بها تنظيم الطليعة والتي انتهت بمجزرة حماه الرهيبة التي لم تستطع سوريا التصالح معها حتى بعد 30 عام كما كتب ياسين حاج صالح. حتى منتصف السبعينات كانت الحياة السياسية في سوريا صراع أفكار و مصالح طبقية وأهلية على السلطة والثروة قادته نخب سياسية واقتصادية وعسكرية، لكن حافظ الأسد حاول حسمها باعتماده المتزايد على الطائفية الصارخة.

بعد تصادمه مع تنظيم الطليعة، قام الأسد بتغيير بنية السياسة ومنهجها، وأعاد هيكلتها ليس على أساس الشعارات والأيدولوجيا الشمولية على كذبها، بل على أساس تعميم الخوف، مع فتح باب الخضوع ورشوة المنافع الدنيئة المتناسبة مع الولاء الشخصي الأعمى من دون دين أو فكر أو مبدأ أو قيم. اعتمد الأسد الأب أيضاً على مزيج من النظام الفاشي النازي والستاليني الشيوعي للسيطرة على السلطة والثروة، وتعمد تدمير الثقافة والقيم والروابط الاجتماعية وبشكل خاص المجتمع المدني امعاناً في اضعاف خصمه (الشعب) الذي يدَّعي ليل نهار أنه قائده الملهم. كما حول الأسد كل مؤسسات الدولة المتسرطنة بفعل التحديث الإشتراكي لمصانع للخوف والترهيب وبؤر لنشر الفساد والتسيب والتخريب والهدر. ازدادت الطّاعة بمقدار انتشار الخوف وتعميم

الجهل وشيوع الفقر. أصبح التنافس في التعبير عن الولاء المطلق الغير مشروط للأب القائد فقط باباً للحصول على المنافع الخسيسة وغير المشروعة. عمّم هذا الذل والصغر على الجميع تقريباً. كان المبدأ "جوع كلبك يلحقك"، والذي يعني ليس فقط ربط قوت الناس بالتبعية للنظام، بل يعني قبل ذلك تحويلهم لكلاب مسعورة بلا أنياب .

أصبح الصراع مع الخوف هو المحدد الأساسي للسلوك الشخصي، فمعظم من سنتحدث عنهم من الأشخاص المعارضة الذين تعاونوا مع النظام فعلوا ذلك خوفاً وليس قناعةً أو رغبةً في المنافع. هكذا اختفت مظاهر المعارضة المنظمة، ولم تظهر عند الأفراد على قلتهم بقدر العلم والدراية أو قوة الخلق، بل غالباً وأساساً عند من أمكنه التغلب الشخصي على الخوف. واستمرت ارهاصات الرفض في تكرار حوادث تحدي الخوف بشكل فردي انتحاري، حتى تغلبت قطاعات واسعة عليه أخيراً، وانطلقت للشوارع مع ثورات الربيع العربي التي انتظرت طويلاً حتى إبتداع طرق التواصل الاجتماعي الحديثة التي صارت بديلاً عن الحياة الحزبية المقموعة (فهي ثورة فيس بوك كما يقول بشار).

تأخر الشعب السوري، وتريث كثيراً لعلمه ببطش النظام ووحشيته، لكنه تحرك وبالتدريج وعلى مراحل وفقط بعد أن تدخل الناتو في ليبيا وانطلقت التصريحات بأن ذات المعايير ستطبق في سوريا. تحرك الشعب بعد أن عاش طويلاً في ظلمة الخوف و مستنقع الفساد والتخلف والانغلاق ودمار العقل وتعميم الجهل، فكانت ثورته ثورة تحطيم وليس بناء، تحطيم كل ما له علاقة بالسلطة التي ارتبطت بالخوف والقهر، من دون وجود بديل ينظم ويحفظ وحدة المجتمع. افتقرت هذه الثورة وما تزال لأبسط مفاهيم وعناصر بناء الدول والمؤسسات، وستستمر كذلك حتى تطمئن لدمار النظام وموت الوحش الرهيب الذي أنخن فيها الجراح، وهذا ما لا يريد الأجانب فهمه ولا أخذه بعين الاعتبار .

علاوة على ذلك، لا يمكن إنكار الدور الخارجي، فكل من عايش ظهور وصعود حافظ الأسد يدرك أنه لم يكن بإمكانه أن يصل للسلطة، ولا أن يؤسس لنظامه الطائفي لولا الدعم الخارجي. لذلك تنتشر القناعة وعلى نطاق واسع أن التحول الذي حصل في سوريا وقادها لهذه الحرب الأهلية القذرة لم يكن ليحصل لولا مساندة خارجية لنظام الأسد استمرت بطرق وأشكال مختلفة وفاقمت من جراح سوريا وصراعاته. هنالك دول إقليمية وجيوش دول عظمى ساهمت في قتل الشعب السوري وابادته بكافة صنوف الأسلحة.

بعد اندلاع الثورة وتفاقم عمليات القمع المنهجي التي طالت طائفة محددة وبشكل سافر، ودخول الميليشيات الطائفية على خط الصراع، استمر صراع التهريب بين كلا الفريقين، وعبرت عنه وحشية النظام في السجون والقصف والتهجير، وكذلك ردة الفعل الغاضبة عليها التي جسدت ذروتها داعش التي تعمدت أيضا صناعة الخوف والتهريب وعلى نطاق واسع. ومهما قيل عن داعش كصناعة أجنبية تبقى هناك حقيقة أنها عاشت في وطننا وساهم فيها عدد من أبنائه وقد أصبحت جزءاً من تاريخه.

كان اعتبار الدين والمذهب هوية سياسية وخندق قتال بما يحمله من قداسة هو العامل الأهم في إطلاق هذا الكم من العنف المقدس، كما أن استيراد النظم الاستبدادية الحديثة لعب دوره في دمار أسس المجتمع المدني الذي حاول كبح جماح الصراع الديني والتنافس المذهبي، والصراع الطبقي، لكن جشع الدول الغربية ورغبتها المستمرة في السيطرة هو من غذى كلا العاملين بكل أسف. أي ثمن يضطر الغرب لدفعه من جراء الهجرة إلى بلدانه، أو حتى حوادث الإرهاب التي تقع فيها، لا يقارن بالثمن الذي كان سيدفعه لو تمكنت المنطقة من دخول الحضارة موحدة بهويتها التاريخية الإسلامية التي تجسد الصراع التاريخي بين الشرق والغرب والذي بلغ ذروته في الحملات الصليبية، ثم الاستعمارية. من وجهة نظر الغرب (الشرق هو العدو الديني ، وهو العالم الثالث الذي

يجب أن يتبع ويخضع). لذلك توافقت مصالح الغرب ومصالح الأنظمة العربية في وأد الربيع الديمقراطي وتحويله لشتاءٍ إسلامي قاسي .

ما زال صانعو الاستراتيجية الغربية متوقفين ذهنيّاً عند زمن الحرب مع السلطنة العثمانية التي ما تزال تطل برأسها راغبة بالعودة — ليس كنزعة قومانية تركية، بل كحاجة استراتيجية للشعوب الإسلامية كلها. هذا الإحباط استغلّه بشكل مُدْمِر أبو بكر البغدادي. المشكلة أيضاً ليست في الشعوب المتخلفة التي تعيش حياتها البسيطة، بل في التحديث العنيف والقسري والمشوه الذي فرض عليها من قبل من يدعون الحضارة ومنظومة الحقوق وهم غير مخلصين لها ولا أميين عليها، ويتعاملون مع الغير بمعايير مزدوجة واضحة.

من الصعب اليوم على كلا طرفي الصراع في الداخل والمغذى من الخارج، التغلب على مخاوفهم من بعضهم، وكذلك من الصعب على الغرب (الذي تأثر بمناظر ذبح مواطنيه وصار عملياً وعسكرياً يعمل ضد الثورة) أن يعترف بمسؤوليته لا سلبيته. بل إنّ الغرب مال أكثر فأكثر نحو تجاهل سلوك النظام فقط لأنه نظام معدوم الهوية والانتماء، ويذبح بشر مغايرين ينتمون للآخر. هذا الأمر عزز من قاعدة وشعبية الإرهاب الذي سيضرب في الدول الأجنبية المشتركة بتلك اللعبة، والتي صارت تشعر فعلاً بالخوف الذي يلامس كل مواطنيها ولا تلتطفه مناظر جنودها المدججين بالسلاح وهم يجوبون المطارات والمحطات.

لقد تحدث الدكتور عبد الرزاق عيد في فترة ربيع دمشق عن ثقافة الخوف التي زرعها النظام، لتأكدها الأحداث التي رافقت الثورة من خلال حرب التهريب المتبادل التي وصلت بالجريمة لسويات غير مسبوقة، قصد منها رفع سوية التهريب بهدف الحسم. جعلت هذه الديناميكية الكثيرين يفرون من ساحة هذه الحرب ليس فقط

بسبب الخوف بل أيضا بسبب البشاعة والانحطاط والقذارة التي ترافق لعبتها، والتي لا يمكن الخروج منها الا بالانتقال للعيش في عقر دار النافخ فيها، متخليا عن الهوية والوطن والأحلام ومرتدياً أشياء أخرى غريبة، ضمن ما يسمى برنامج الترسخ الذي لم أخضع له، وتمردت عليه أيضا، واللغة التي رفضت تعلمها.

مؤخرا لبّيت في أيار (مايو) دعوة كريمة من الدكتور طلال كيالي الذي خدم معي الجيش في حماه عام ١٩٨٢ لزيارته في غاراته في ميلانو إيطاليا. كان قد مضى على آخر لقاء بيننا 11 سنة حافلة، وقد حملت له سوريا على لوحة رسمتها، واعتبرت ذلك نوعاً من رد الأمانة لكوني قد وقّعت يوماً على وصل استلامها لبعض أصدقائي قبل سفرهم منها، وهو الدكتور قاسم قطيفان الذي كان زميل ذلك المستوصف في حماه. سوريا اليوم بالنسبة لنا بعد أن هُجّرنا منها مجرد صورة ذهنية، لوحة ترمز لها شجرة عميقة الجذور وامرأة جميلة ترتدي أوراق تلك الشجرة، سقطت على الأرض وتحاول النهوض مجدداً في محاذاة البحر المتوسط .



اللوحة سابقة الذكر

تعرفت خلال هذه الزيارة على الدكتور نبيل اللو الذي شجعني كثيراً على كتابة مذكراتي وتطوع مشكوراً لإخراجها، وباشرت بعد عودتي تدوينها لأنتهي من ذلك في شهر حزيران 2017، أي بعد مرور 50 عاماً على تلك الحرب التي أدخلتني عالم السياسة، في حين تتجه الظروف العامة في المنطقة نحو حرب واسعة تستعيد وتستكمل الحرب العالمية الأولى.

سألت فيما مضى مريضاً في عيادتي مصاباً بتسمم غذائي، "ماذا أكلت؟"

"لم آكل شيئاً"، قال.

"لا بد أنك تناولت مادة ملوثة وعليك أن تتذكر." عندما أصر أنه لا يوجد، قلت له، "بسيطة. غداً، منذ الصباح تحمل ورقة وقلم وتدون لي بالزمان والدقيقة كل مادة تدخل فمك."

عاد في اليوم التالي وقد دون مئة مادة وصنف.

هكذا عندما صارت حكايتي تتكامل فوق الورق، استغربت مثل مريض كل ذلك العدد الضخم من الأشخاص والأحداث التي مرت معي وطواها النسيان، مع أنني لم أدون هنا إلا الأكثر أهمية فيها فقط، والتي رسخت في ذاكرتي. في الواقع، كنت في حالة معركة وكفاح يومي، في كل مكان كنت فيه وكل ظرف عشته بأشكال وطرق وأدوات مختلفة: معركة يومية قاسية وصراع مستمر مع القمع والخوف والخذلان الذي هو المعنى الحقيقي لعيش السوريين. حتى أنني لم أشعر بالراحة النسبية إلا بعد أن اعتزلت في السويد، وبمقدار ما ابتعدت عن التواصل وسماع الأنباء أي بمقدار ما فقدت انتمائي لسورية.

أيضا لا أستمتع عندما أكتب هذه الحكاية لأنها سرد خالي من الفكر والإبداع والجمال، بل أشعر بالقلق والتوتر، قلق التذكر والنسيان، فأنا ممن لا احفظ كثيراً الأرقام والأسماء. ذاكرتي للأشكال والمفاهيم والترابطات أقوى بكثير. بسبب ذلك، تجاهلت بعض الحوادث لعدم قدرتي على تذكر أسماء شخوصها. أتوَجَّلُ أيضاً من أن أتسبب بالإساءة لمن تعاملت معهم، فمعظمهم يصعب مديحهم. هذا ليس تعالياً، بل واقعاً مريراً دفعت سوريا ثمنه غالباً من دمائها. أما التوتر، فلأن الموضوع بالنسبة لي يختلف عن القارئ. أنا لا أتذكر الحدث فقط بل أعيشه بكل تفاصيله. هذا بحد ذاته يعيد الحياة إلى الألم المرتبط بالتجربة الحقيقية، لدرجة أحدثت عندي التوعك الصحي والمرض .

من هنا من ملجئي البعيد والهادئ، حيث ليس لدي عمل أو دور أو قيمة،
وحيث رفضت أن أخضع لبرنامج التريخ أو تعلم اللغة، ولا يدل على وجودي سوى
صوت سعالي الناجم عن تدخين سجائر اللف، من هذا المنفى الذي يسمونه لجوء
سياسي أستطيع أن أسرد عليكم قصتي السياسية التي أوصلتني إلى ما أنا عليه، والتي بدأت
بالحرب الأهلية التي غذاها الأجنبي، وانتهت أيضاً إليها. خرجنا من بلادنا إلى أرض هذا
الأجنبي لنعيش عنده بسلام، مجبرين على تقديم واجب الشكر والامتنان له.



صورة في المنفى في السويد

الفصل الأول: الحرب الأهلية

بناء على ما دَوّن في شجرة العائلة (وهي لفافة ورق قديم بعرض 50 سم وطول عدة أمتار مملوءة بأختام كثيرة تعود للعهد العثماني) فإن أجدادي من العرب الذين ذهبوا للأندلس وطرّدوا منها مع بداية العصر الحديث، وقد سكن بعضهم في لبنان، واقتطع العثمانيون بلدة اللبوة لجدي السادس الذي قتل بالحرب الأهلية والتمرد على العثمانيين قرابة عام 1840، ففرت زوجته مع أولادها باتجاه الزبداني حيث استقر أحدهم ولقب باللبواني نسبة لبلده وتزوج من آل وهيب وصار محسوباً على بيت عبد الحق، ومنهم من سكن الصبورة ولقب بالبلعبيكي، ومنهم اثنان تابعوا نحو دمشق وسكنوا في الشيخ محي الدين (فخري وبربور). احتفظت العائلة بسندات تملك لأراضي ومعاصر زيتون ومطاحن حبوب كثيرة فيها، لكنهم اضطروا لبيعها كلها للحصولدار بسبب عدم القدرة على العودة إليها، الذي يحتاج لإخلاء الذين احتلوها وسكونها بنتيجة الاقتتال الأهلي، ولا على دفع الرسوم التي فرضت بعد قانون التنظيمات. تذكر أمي نقلاً عن أمها أن جدها حسن قد باع هذه الأملاك لمحصل الضرائب بمجيدي واحدة في بداية القرن العشرين .

كان الطريق السلطاني الذي يربط دمشق بحمص يسير مع مسير الأنهار، مع بردى ثم مع سردا ثم مع نهر بعلبك ثم مع العاصي وعند كل مسيرة يوم (تسع ساعات) يوجد فندق وخان وحاضرة حرص العثمانيون أن يقطنها السنة لحراسة طرق القوافل والإمداد في محيط من خليط مسيحي ودرزي وشيبي. منزلي الذي هجرته يقع على هذا الطريق في أرض كرم السبع على بعد 500 متر من خان الفندق الذي كان محطة القوافل القادمة والذاهبة لدمشق حيث بني القرن الآلي فوقه حالياً.

جدي، من مواليد 1900، لم يساق للسفر برلك لصغر سنه، بينما فقد أحد أخوته في الحرب وفر الثاني من العسكرية، وهرب إلى الأرجنتين ومات فيها دون أن ينجب، وتمكن الثالث من العودة بعد انتهاء حرب البلقان وغياب سبع سنوات.

جدتي أنجبت ثلاث عشر ولداً—لم يعيش منهم سوى أبي وعمتي. منزلنا الذي ولدت فيه يقع عند ساحة الجسر على نهر النابوع الرافد لبردى، حيث الحمام والطاحون والجامع الكبير وسوق الخضرة. في ذاك المكان، فتحت عيادتي لمدة عشرين عاماً. بعد الثورة، أصبح مركز أول مجلس محلي منتخب في سوريا، كون الزبداني أول مدينة تحررت وطردت جيش النظام بداية عام 2012. أمام منزلي وعيادتي، سقط أول شهيد في التظاهرات في الزبداني: حسن زليخة الذي يحمل اسم جده معلم العمار الذي أعاد بناء ذلك البيت بالاسمنت عام 1963.



صورة للمسجد الظاهر في الصورة السابقة بعد دماره

توفي أخ والدتي قبل ولادتي في الزبداني في 10 تشرين الأول 1957. لذلك، تعلق بي أكثر بسبب حزنها عليه ورفضت فطامي باكراً، ولم تنجب بعدي سوى أخت تصغرنى بعشر سنوات، وهكذا تربيت في المنزل الذي يحتوي على ثلاثة يقومون بدور الأب هم جدي وأبي وأخي الأكبر مني بخمس سنوات، وثلاث يقمن بدور الأم وهم جدتي وعمتي وأمي، بينما استطعت فقط أن أتمرد بصعوبة على سلطة أختي التي تكبرني بثلاث سنوات وكان علي أن أناضل طويلاً للتحرر من هذه السلطات الرقابية خاصة وأن عمتي مديرة مدرسة، وأبي ضابط صف في الشرطة. نظراً لقلّة الدخل الوارد من الزراعة كان جدي يعمل في دمشق لفترات طويلة، ثم تطوع والدي في سلك الشرطة مع أنه وحيد، وخدم في مفرزة حراسة البرلمان ونقلنا لدمشق، حيث سكنا في حي الشيخ محي الدين بالقرب من أقربائنا هناك. هكذا كانت سنواتي الأولى بين دمشق والزبداني، وما أزال أذكر يوم عاد وقد غير سلاحه وعمرته فحمل بارودة بدل المسدس وخوذة حربية بدل العمرة . وكان مستعجلاً، وقال لقد حدث انقلاب ونحن في حالة استنفار (8 آذار 1963) وكنت قد دخلت في عامي السادس وسجلت في المدرسة للعام القادم.

عندما بدأ الموسم الدراسي في أيلول من ذات العام وداومت في الصف الأول، أذكر أننا كنا نخرج بمظاهرات يومية كنا نسُميها إضراب يقودنا طلاب أكبر منا ولا أتذكر الشعارات، لكنني أذكر أنني كسرت قلم الرصاص في المحفظة من الضرب عليها فلامتني أُمي على طريقة شد الأذن، وشاركت برمي الحجارة على مدرسة البنات التي فيها أختي لتعطيل الدراسة فيها وكل ذلك كان يحدث في دمشق ضد سلطة الانقلاب في أيلول بعد ستة أشهر من حدوثه.

أما أول حدث سياسي بالكاد أذكره، فهو قبل ذلك بكثير، عندما صحبتني أُمي مع بعض نساء الحارة إلى جسر فيكتوريا قرب التكية السليمانية والمتحف الوطني لمشاهدة موكب جمال عبد الناصر في آخر زيارة له قبل الانفصال. ما أذكره هو الانتظار

الطويل والعطش والرحمة وعندما رفعتني أمي عالياً بقدر ما تستطيع لأتمكن من مشاهدة معبود الجماهير. ولا أتذكر صورة الموكب، بل حفظت هذه القصة في ذاكرتي رغم صغر سني لكثرة ما تكرر الحديث عنها فيما بعد، خاصة في مرحلة الانفصال فنحن أسرة تربينا على حب جمال، بالرغم من انتقادات والدي اللاذعة لمرحلة الوحدة حيث نقلت إلينا كما كان يقول الفساد والرشوة والتجسس والمخدرات حتى المطر لم يهطل طول ثلاث سنوات.

ما أزال أذكر يوم صحبني والدي معه أيام الانفصال للسوق قرب القلعة واشترى لي دراجة على ثلاث دوايب بثمان ليرات، وكان راتبه يومها أقل من مئة ليرة، وعدنا من ساحة المرجة بالترومواي إلى الشيخ محي الدين. كما أذكر أنه ذات مرة قد طلب مني حمل ما اشتريته، وتمنع عن امساك يدي تحسباً لأن يراه ضابط كان يمر بالطريق، فهو عندما يرتدي البدلة يعتبر على رأس عمله ويجب أن لا يحمل بيده أشياء، ولا يصحب أولاده، ويحافظ على هندامه في أفضل حال. كما أذكر أنني ركبت في الطنبر من المرجة للشيخ محي الدين مرافقاً للقطن والصوف الذي اشتريته أمي بينما ذهبت هي بالترومواي. ولا أنسى المشوار الطويل بالباص من الشيخ محي الدين حتى الإطفائية لكي يحقني الممرض ابرة بنسيلين في مستوصف الشرطة، والتي كانت تغلى بالماء علي نار الببور.

لم أكن أميز بين الأعلام المختلفة، وعند مرور الباص من ساحة يوسف العظمة شاهدت البناء الرسمي للبلدية وعليه أعلام كثيرة فقلت لأمي فرحاً، "انظري انظري أعلام الوحدة." لكنها طلبت مني السكوت وعدم رفع صوتي. وكنت أخشى أن أضيع عن أمي في زحام دمشق لكونها ترتدي كنساء دمشق المالاية السوداء حيث من الصعب تمييزها عن غيرها، بعد أن تهت عنها عدة مرات عندما تلهيت بواجهات المحلات، وضعت مرة في معرض دمشق الدولي الذي كان مناسبة شعبية أكثر منها تجارية .

لم يطل الوقت بعد انقلاب آذار حتى جرت تصفيات في سلك الجيش في تموز بمبرر حركة جاسم علوان، ثم الشرطة بعد شهرين، فنقل أبي من العاصمة التي لم يكن فيها سوى 400 بين شرطي وضابط شرطة، نحو الحدود مع تركيا وبالتحديد بلدة كفر تخاريم. كان السبب أنه من أهالي دمشق (سني) وغير موالي لحزب البعث، فكل سني يريد البقاء في عمله في الدولة عليه أن ينتمي للحزب. كان هذا قبل أن يتحول البعث لسلطة طائفية صريحة مع حركة حافظ التصحيحية .

قضيت أشهر دراستي الأولى في كفر تخاريم في مدرسة هنانو المبنية من الحجر على منطقة مرتفعة. لكوني غريب وليس لي أقارب، ولا أملك القوة البدنية الكافية لدخول حلبات العراك اليومي في الباحة والصف ودورات المياه وعند باب المدرسة، كان الشيء الوحيد الذي يعطيني بعض الحصانة هو الاجتهاد في الدراسة. سرعان ما نقلنا في النصف الثاني من ذات العام لبلدة الحسانية على الحدود مع هاتاي في لواء اسكندرون المغتصب، حيث المدرسة مؤلفة من غرفتين وأستاذين وكل صف يضم ثلاثة مراحل الأول والثاني والثالث، ولهم غرفة واحدة وأستاذ واحد، وكذلك الرابع والخامس والسادس.

كنت أحضر دروس الصفوف الثلاثة معاً حيث يخصص لكل صف ثلث ساعة. لم يطل الوقت في هذه الضيعة الجبلية الجميلة التي تطل جبالها على لواء اسكندرون وبحيرة العمق التي كنت أذهب فيها مع والدي بدورية للحدود مع تركيا حيث نلتقي بالحرس التركي الذي يحب العجوة (الخرما). مخفر الشرطة السوريّة المكون من رقيب وثلاثة عناصر كان مكلفاً أيضاً بحراسة الحدود على طول عدة كيلو مترات، في مقابل عدة ثكنات تركية. في تلك الثكنات كان يعذب العساكر بعقوبة الفلاحة بدلاً عن الثور تحت نير الفدان، وقد أراني أبي ذلك كيف كان العساكر يجرون الفدان، ويحرثون أرضاً بجانب

الثكنة. في تلك المدرسة الصغيرة تغيب التنازعات لقلة العدد ويسود جو مختلف من المودة الهادئة، ويستمر الأستاذ بوظيفته حتى خارج المدرسة وأوقات الدوام.

انتهى الصف الأول، وصيفنا في الزبداني، لكن عودتي للصف الثاني كانت في بلدة أخرى اسمها العلاني بالقرب من سلقين عند الحدود مع اسكندرون حيث مجرى العاصي هو الحد بين الدولتين. كانت رتبة أبي حينها رقيب أول وهو رئيس المخفر ومعه ثلاث شرطة ومستخدم مدني. أما المدرسة فكانت المدرسة من صفين فقط، وكانت بيوت الضيعة الطينية المسقوفة بالقش من دون ماء وكهرباء، مما دفع الجميع للذهاب إلى الساقية لقضاء حاجته. المراحيض لم تكن معروفة.

لم تكن السيارات تصل إلى تلك البلدة، مما اضطرنا لركب البغال لساعات من سلقين، أو نركب التركتور الوحيد في الضيعة، والذي كان يذهب ويعود لسلقين عدة مرات اسبوعياً. كان التركتور هو الآلية الوحيدة في القرية عدا عن متورات ضخ المياه التي ركبت على النهر، والتي تنقل المياه على مراحل إلى البساتين التي كانت قد وزعت حديثاً على الفلاحين بعد أن كانت ملكاً للإقطاعي الذي كان منزله مهجوراً في طرف البلدة. كنا ندخل ذاك المنزل في غفلة من الحارث لسرقة بعض الفاكهة النادرة في حديقته. أما ما تبقى من بساتينه فكانت محروسة من ناطور مسلح ببارودة جفت، لا يمكننا دخولها إلا خلسة، حيث كان يغزوها الأطفال محملين بأكياس قماش مربوطة لعنقهم يملأونها بالزيتون ويفرون. كان السلاح الذي نحمله هو النقيفة.

في السنة الثالثة لم يحضر أخي وأختي بل بقوا في الزبداني مع عمتي التي أدركت تدني مستوى التعليم بهذه الطريقة، وقضيت الشتاء وحيداً مع أبي وأمي .

في الصف الرابع، أمّن والدي انتقاله مجدداً لدمشق، بتوسط من قريب لجدي، زكي دوريش، والذي كان عضواً في صفوف البعث، وموظف بالمكتب الخاص لرئيس

الحكومة يوسف زعين. زكي درويش كان من أنصار حركة 23 شباط التي أطاحت بحكم أمين الحافظ (أبو عبدو) وجاءت بواجهة مكونة من ثلاثة أطباء كانوا قد تطوعوا لتمرير جرحى الثورة الجزائرية: نور الدين الأتاسي، يوسف زعين، وإبراهيم ماخوس. في حينها، كان صلاح جديد هو الحاكم الفعلي للنظام، ولكن لم يكن يؤيد فكرة وجود علوين في الصف الأول للسلطة، وقد عين حافظ وزيرا للدفاع ومسؤول التنظيم في الجيش.

في تلك الأثناء، قضيت الصف الرابع والخامس والسادس في مدرسة عبد القادر الجرجاني في الزبداني، ثم الإعدادية في ثانوية الزبداني للبنين وكذلك الثانوي.